سوانح
فى مصير الانسان

للأستاذ عثمان أمين

ليسانسيه فى الفلسفة والآداب

وعضو بعثة الجامعة المصرية

« لماذا وجد الانسان فى هذه الدنيا ! وما المهمة التى يؤديها فيها ؟ » . سؤال ليس بغريب ولا بجديد على أحد من القراء . فكل حى ذاق مر الحياة وحلوها هو عرضة لأن يمر بذهنه سؤال كهذا يوما ما من أيام حياته . وليس ثمة إنسان — كائنا ما كان قسطه من الثقافة والسعادة — إلا وقد عرض له ، تحت تأثير ظرف من الظروف المحيطة به أن يفكر فى هذه المشكلة ، مشكلة المصير الانساني .

لكن لاريب أن الانسان لا يطرق أمثال هذه المسائل كل يوم و إنما يصل إليها أخيراً وفيما ندر وشذ من الظروف والاحوال . ثم لا تلبث مشاغل الايام أن تطغى عليها فتتركها فى زوايا النسيان .

فما هى إذن هذه الظروف التى تعرض لنا فتنتزعنا من مستوى الحيوان . وتسمو بنا إلى فكرة هى الفكرة الخلقية والفكرة الانسانية على الحقيقة !

* * *

لو أن كل شيء في الحياة كان يجرى على هوى المرء ورغائبه ، لما كان ثمة مجال لان يتساءل لماذا وجد في هذه الدنيا . فلو حدث ائتلاف تام دائم بين ميول الطبيعة البشرية وبين مجرى الامور لكان خليقا أن يترك العقل في شبه إغفاء .

ولكن الذى يوقظ العقل ويبعث فيه القلق على مصير الانسان هو الشر . الشر الذى يلازم الانسان في سائر شئونه : ويكاد لا يفارقه حتى في متعه وملاذه العاجلة التى يسميها سعادة :

حين تقع أبصارنا على هذه الدنيا تبدو لنا باديء الامر كأنها قد كسيت أبهى حلل السعادة . عند ذلك تنطلق طبيعتنا وهى تفيض بالآلام والاوهام . حتى إذا آن أن تخبر في الحياة شأنا من شئونها القاسية ، أو تمارس حقيقة من حقائقها المريرة ، انقلبت على الاثر ذاهلة ساخطة متبرمة . وحسبت فيما قد أصابها من ذلك أن نواميس العدالة قد امتهنت ، وأن قوانين الطبيعة قد اجترحت . ومن ثم يكون هذا الارتياب الطويل أولا يعقبه ذاك الاحتجاج الصامت على كل ما في الحياة من هموم وكروب . وهذا كله ليس بمانع أن يظل إيماننا ثابتا ويقيننا لا يتزعزع وقناتنا لا تلين .

وفي الحق ان بؤس الحياة يدهشنا أكثر مما يروعنا طالما كنا شبابا . وقد يبدو لنا أن ما أصابنا من مكروه هو من شذوذ الامور . ونؤثر أن نتهم أنفسنا على أن نرتاب في عدل الله وحكمته . ونعتقد أننا إذا كنا قد لقينا في حياتنا خيبة أو خذلانا ، فالذنب ذنبنا لا ذنب الاقدار . وهكذا نعمد إلى مغالطة أنفسنا لنرفه عنها ألم الخيبة والفشل ، ونمنيها بأن نبذل قصارى جهدنا لنكون في غدنا أمهر وأفطن مما كنا في أمسنا ويومنا . لكن مهارتنا تبوء أيضا بالفشل مرة بعد مرة . ونظل مع هذا مستمسكين بعرى الايمان واليقين . حتى إذا سدد الدهر إلينا سهما مريشا ، أفقنا مما غشينا من الوهم . وفتحنا عيوننا فجأة ، فرأينا الحقيقة المؤلمة ! وحينئذ يتلاشى ما كان قد بقى في نفوسنا من آمال وحينئذ يقوم في أثرها ضرب من الموجدة والسخط الذى يضاعف تباريح الشقاء . وحينئذ من أعماق قلوبنا التي أضناها الاسى ، ومن قرارة عقولنا التى أصيبت في أعز معتقداتها ، لا مناص من أن يرتفع هذا السؤال الحائر الحزين :

« لم إذن قد وضع الانسان في هذه الدنيا ؟ »

* * *

وليست شقاوات الحياة وحدها هى التى توجه نفوسنا نحو هذه المعضلة . بل الواقع أنها

تصدر عن سرائنا كما تصدر عن ضرائنا : إذا وافتنا ظروف الحياة بما نود ونهوى ، حسبنا أنفسنا بادىء الامر سعداء هانئين . لكن هذه السعادة لا تلبث أن تفتر وتفقد ما كان لها من بهجة وطلاوة ، حتى تعود بعد قليل ، وما كان بالامس يرضينا رضى تاما ، لا يرضينا اليوم إلا رضى يسيرا ، يعقبه بعد ذلك رضى أقل ، وهكذا يذهب رضى النفس رويدا رويدا و يحل محله على مرور الزمان التبرم والضيق . . هذه هى الخاتمة المحتومة لكل سعادة إنسانية . وهذا هو القانون القاهر الذى ليس لجميع الاحياء منه مفر ! . فما يكاد الانسان يدرك السعادة التى لج به الشوق إليها حتى يأخذه الفزع إذ يرى أنها ليست كافية ولا شافية ، وأنه لم يدرك منها ما تمنت وما وعدت : ولربما كانت الحياة قد أعطت كل ما تستطيع أن تعطى ، غير أن الرغبة فى السعادة لم تخمد ولم تفتر ، ولن تقنع النفس الانسانية ولو قيض لها أن تحظى بمسرات الحياة جميعاً . حينئذ قد يحكم الانسان بأن أهواء النفس شرك خادع ، وأن السعادة شبح زائل ، وأن الحياة نفسها خيبة وضلالة.

وهذا الشعور من شأنه أن يحمل الرجل المفكر المتروى على أن يرجع إلى نفسه متدبرا باحثا متحيراً فى أمر مصيره .

* * *

الانسان فى وسط المدن قد يبدو ، وكأنما هو الشغل الشاغل للكون كله : إذ فى المدن يتلألأ نجمه ، و يعلو كعبه ، وفيها ينزع كل ما أوتى من سيادة ظاهرة . و يلوح فيها كأنه المهيمن على مسرح الدنيا ، وكأن الله ما أبدع الكائنات ولا دبر هذا العالم العجيب إلا لخدمته وقضاء مصالحه دون سائر المخلوقات ، من أجل هذا تملكه العزة والكبرياء وتحفزه ثورة الظفر ، و يأخذه الغرور .

وذلك شأن الانسان فى غمار المدن وفى ذلك المضطرب الحافل بمظاهر الحضارة الانسانية وآثارها ، الزاخر بأفواج الناس من لداته ونظائره . لكن هذا الانسان المتجبر المتصلف إذا اتفق له أن وجد نفسه ساعة وسط طبيعة شاسعة . فرأى نفسه وحيدا تجاه هذه السماء التى ليس لها من نهاية . وحيال هذا الافق الذى يمتد و ينتشر إلى أقصى مرامى البصر . والذى يجد من بعده وفيما وراءه آفاقا أخرى نائية مترامية — أقول إذا وجد هذا الانسان نفسه وسط معالم الطبيعة الرحبة ، وشاهد من جليل صنع البارى ما يقصر عن إدراكه . فتراءت له من أعلى الجبل . ومن تحت ضوء النجوم ، هنا وهناك ، قرى صغيرة مبعثرة ، تتضاءل فيما وراءها من غابات وآكام ، و رأى هاتيك

الغابات والآجام هى أيضا تضمحل وتفنى على امتداد البصر — عندذلك يخطر في باله أن تلك القري تسكنها خلائق ضعيفة مثله ، فاذا بدا له أن يقيس هذه الخلائق بعالم الطبيعة التى تحيط بهم وأن يقيس هذه الطبيعة نفسها بعالمنا الذى هى منه بمثابة القطرة من البحر المحيط ، ثم قارن بين هذا العالم و بين آلاف العوالم الاخري السابحة فى فضاء الكون وأجوائه ، والتي إذا قيس بها عالمنا لم يكن شيأ مذكورا — حين يقف المرء على هذا المشهد الرائع ، يشعر بأنه يدنو شيئا فشيئا من مطالع الابدية ، ويمتلىء قلبه بجلال القدرة الأهية . و يتمثل مافى حال الانسان من ضعف وصغر . وعندئذ يرثى لا هوائه المنكودة التي لاتخلو لحظة من شوائب وكدر و يترحم على هناءاته الباطلة التى تفضى وشيكا إلى التبرم والضجر . وحينئذ يسائل نفسه . من هو وماشأنه ؟ ومن أين أتى ؟ وماذا يصنع فى هذه الدنيا ؟ وعندئذ يعن للانسان أن يفكر فى حظه ومصيره .

* * *

ولننظر لحظة فى تاريخ الجنس البشرى : شعوب تجيء وتؤدى مهمتها فى الوجود وسرعان ماتختفي وتظهر أمم غيرها فتمثل دورها على مسارح الارض ثم تمضى كمن سبقها ، وهكذا قصة كل حين .

حين نفكر فى هذا الليل الحالك الرهيب ، الذى تسير فيه الانسانية متعثرة ، جاهلة منبتها وغايتها ، وحين ننعم النظر فى هذه الامم التي تظهر على وجه الارض فى كل عهد ثم تمضى وليس منها من يدرى على التحقيق من أين أتى ، ولا ماذا يصنع ، ولا إلى أين يذهب وحين ننظر في وجوه الاختلاف والتفاوت الذي يفرق بين الاقوام أكثر مما تفرق بينهم المسافات والجبال والبحار ، وحين نفكر فيما يساورهم من دهشة حين يلتقون ، وما ينشب بينهم من خصومة حين يتعارفون ، وعندما نتدبر أمر هذا القضاء الغامض الذي يتتبعهم شعبا شعبا على مسرح الدنيا ، وهذا القدر الغالب الذى يكتم سره عن الناس ، والذى مايكاد يجعل بعضهم يسودون فيها ردحا من الزمن ، حتى يخبي عليهم و يتركهم شذر مذر و يجعلهم أثرا بعد حين — حينئذ يستولى على النفس رهبة وخشوع . و يحس المرء بعبء هذا المقدور المستور الذى ليس إلى النجاة منه سبيل .

فما هى إذن هذه الانسانية التى نحن شطرها وجزؤها . ومن أين تجيء . وإلى أين تمضى . أترى يكون شأنها شأن أعشاب الحقول تنبت من الارض فى كل مكان . فى اليوم الذى عينته نواميس الكون العامة ثم تعود إليها إذا جاء أجلها فلا تستقدم عنه

ساعة ولا تستأخر ؟ أم ترى أن الكون ليس إلا مسرحا تمثل عليه الانسانية فصلا من مصائرها السرمدية ؟

لقد دانت مدنية الشرق لمدنية اليونان . ودانت مدنية اليونان لمدنية الرومان . ولقد برزت من غابات جرمانيا مدنية جديدة فقوضت مدنية الرومان . فما نصيب هذه المدنية الجديدة ومامصيرها ؟ ترى هل تبسط على الدنيا سلطانها . أم أن من حظ جميع مدنيات الارض أن تزدهر وترتفع ثم يدب إليها الضعف والاضمحلال ؟ وجملة القول ، هل الانسانية تدور منذ الازل ضمن دائرة معينة . أم تعدوها وتتقدم . أم هى كما يزعم البعض تتأخر وتتقهقر ؟

إن الامر يلتبس علينا . وتساورنا الحيرة إزاء هذه المسائل . يتساءل الانسان ماهذا القانون الذي تسير تحته قطعان البشر دون أن يعرفوه . والذى يحملهم من أصل مجهول إلى غاية مجهولة . وعلى هذا النحو يفكر الانسان فى مصير الانسان .

ولا يظن القارىء أنه ينبغي أن يكون الانسان عالما لكي يسمو عقله إلى تصور مشكلة مصيره . فأن الفلاح الساذج الذى يرعي الماشية هو أيضا يواجه الطبيعة . وفى أوقات فراغه الطويلة قد يفكر متسائلا من هو ؟ وما عسى أن تكون تلك المخلوقات الراقدة عند قدميه ؟ وللفلاح أيضا أجداد هبطوا الى القبور واحدا بعد واحد . فهو يتساءل لماذا ولدوا وفيم يعيشون على الارض حقبة من الزمان حتى اذا انقضت آجالهم ماتوا وأخلوا المكان من بعدهم لآخرين هم بدورهم مختفون . وهكذا الحال أبد الدهر بلاسبب ولا غاية : إن الفلاح يفكر مثلنا في هذا الشئون . وهو يفكر كذلك فى هذا الكون اللانهائى الذى ليس هو منه سوى ذرة يسيرة . هو يشعر مثلنا أنه ضائع فى سلسلة الكائنات التي لا يعرف لها مبدأ ولا نهاية .

ويخطر له أحيانا أن يبحث عن الصلة بينه و بين تلك البهائم التى يتولى رعيها . و يتساءل كما أنه هو أشرف منها . أليس ثمة مخلوقات أخرى أشرف منه وأرقى . و إذ يتمثل ماهو فيه من فقر وكد وذل يسهل عليه أن يتصور خلائق أخرى أكمل منه وأعظم استعدادا للسعادة . وحينئذ يحسر فيوجه إلى الخالق سبحانه هذا السؤال الصارخ الحزين «ربى لم خلقتنى ؟ وما معنى المهمة التى أقوم بها فى هذه الدنيا ؟ »

إذا عرض للانسان فى ظرف من ظروف حياته أن يردد هذا السؤال . ثم لم يجد فيما رسخ من عقائده جوابا مقنعا شافيا . ساورته فى ذلك شكوى جمة ولم يعصمه شىء من الكفر والجحود إلا أن تدركه رحمة من العلي القدير .

عثمان أمين